الجزء الأول

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول
تفوق الشريعة الإسلامية

من أساليب كتاب الله القوية الأثر أن القرآن يبث هدايته في الوقت الذي يفند العقائد والآراء الأخرى تفنيدا موضوعيا: وبضدها تتبين الأشياء. ومن الحكم التي ساقتها أحاديث النبي ﷺ قوله: أمرنا معاشر الرسل أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

واقتداء بأسلوب القرآن وحكمة الحديث فإننا سوف نعرض لروعة الشريعة الإسلامية بينما نفند البدائل الأخرى تفنيدا موضوعيا ونستخدم فيما نقول حججا تخاطب العقل المعاصر.

بعض مشاكل الفكر الديني غير الإسلامي :

لقد أتى على الحضارة الأوروبية حين من الدهر ظنت أنها استطاعت أن تكبر على الدين وتوالت النظريات التي أعلنت أن الدين هو مرحلة طفولة في تطور الإنسان وأن الإنسان يشب حتما من تلك المرحلة إلى ما بعدها.

سادت هذه الأفكار أواخر القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين، ولكن عوامل كثيرة قضت على هذه الآراء أهمها:

- أشد الذين دعوا ضد الدين تطرفا مثل نيتشة، وماركس ما لبثوا أن أقاموا ديانات وضعية أشد تعصبا من الأديان التي شجبوها وصارت النازية والماركسية ديانيتن وضعيتين ذواتي عقائد وشعائر وقادة تحيط بهم هالة التقديس.

- واتسعت الدراسات فشملت كل المجتمعات الإنسانية فشوهد أن الإنسان حيثما حل وأقام لنفسه ثقافة أو حضارة فإنه لجأ إلى عقيدة دينية واستعان بها فكأن الاعتقاد بعض ضرورات الحياة.

- وثبت لكثير من علماء النفس أن العقيدة - أي عقيدة- تحقق تماسكا في شخصية الإنسان وتشحذ همته وتجعله أكثر تضحية وأوفر عطاءا.

- وبلغ التطور المادي مداه فاتضح أنه إذا لم ترشده قيم روحية وخلقية سيتحول وحشا خطرا على الحضارة الإنسانية نفسها.

- هذه العوامل مع عوامل أخرى أرجعت كثيرا من الناس والمفكرين في أوروبا وأمريكا للدين.

ولكن العودة للدين لا يمكن أن تكون مجرد عودة للوراء فهنالك مسائل ينبغي أن يحلها العائدون للدين أذكر منها هنا ثلاث مسائل هامة:-

أ- **إقرار المعرفة العقلية:** لقد نما الفكر الأوروبي والأمريكي نموا عقليا وعلميا كبيرا ومع أن حاجتهم للدين الآن كبيرة جدا فإنهم لا يستطيعون الاطمئنان لدين لا يسع نموهم الفكري والعقلي هذا.

لقد تمرد الفكر الأوروبي العلماني على المسيحية لعدة أسباب ومن أهمها أنها تحصر المعرفة وأساليبها فيما أتى به الغيب وفي ممثل الغيب -أي الكنيسة-فلا تقر للعقل ولا للتجربة بمساهمة في المعرفة وهذه المشكلة باقية لتعكر صفو العودة إلى الدين في أوروبا وفي أمريكا.

ب- **التوفيق بين الثابت والمتحرك:** ومشكلة ثانية هي مشكلة التوفيق بين غيب مطلق العقائد وأوضاع اجتماعية متحركة. لقد عالجت المسيحية هذه المشكلة بحصر القيمة في الغيب وحده كأن الدنيا والمجتمع أمور لا أهمية لها. والإنسان مع

حاجته للدين وعقائده المطلقة محتاج للاهتمام بحياته في الدنيا وحركة المجتمع ولا يطمئن لعقائد دينية لا تشبع الحاجة للأمرين. وكما كان حل المسيحية غير موفق فإن حلول أديان أخرى كالهندوسية حلول أقل توفيقا، فالهندوسية تربط بين عقائد غيبية ونظام اجتماعي معين هو نظام الطبقات المرتبط بتناسخ الأرواح بحيث توجب أن تكون عقيدتها الدينية ونظامها الاجتماعي ثوابت مطلقة.

ج- **التسامح الديني**: عانت أوروبا تاريخا دمويا صاخبا خاضته شعوبها بسبب التناحر الديني وصار الفكر الأوروبي الحديث يعلن التسامح الديني وحرية العقيدة سبيلا وحيدا لتفادي الحروب الدينية. والعقيدة المسيحية ترى أن إنسانية الإنسان نفسها لا تكون إذا هو لم يؤمن بفداء السيد المسيح ولا خلاص له من الخطيئة الأولى أي من الضياع التام إلا عن طريق هذا الفداء. فكيف يمكن التوفيق بين اعتقاد ديني هذه بعض واجباته وبين الاعتراف بالأديان الأخرى واحترام حريتها.

بعض مشاكل الفكر الوضعي غير الديني :

الفكر الإنساني الوضعي لم يعد ينكر أهمية الاعتقاد للإنسان وقد اقتنع عن طريق التجربة أن انحسار القيم الروحية خلق غربة للإنسان يحاول البعض التغلب عليها بالخمور والمخدرات ولا يفلح فيتحول الجوع الروحي إلى أمراض نفسية عميقة يحار الطب في علاجها.

ورغم إدراكه عن طريق التجربة والاستقراء أهمية دور القيم الروحية في حياة الإنسان فإن الفكر الوضعي لا يستطيع أن يقبل أي ملة بعينها ليلتمس منها إشباعا للجوع الروحي وكل الديانات الوضعية التي ألفها الفلاسفة تكشفت عن ضعف فاضح.

والفكر الوضعي يدرك تماما أهمية الأخلاق للاجتماع الإنساني وقد اقتنع عن

طريق التجربة والاستقراء أن الإنسان لكي ينظم نفسه اجتماعيا ولكي يستعد للقيام بأي مهمة محتاج للالتزام بضوابط خلقية معينة. ورغم هذا الاقتناع فإن الفكر الوضعي لا يستطيع أن يدعو لقيم خلقية معينة بل يجد نفسه مضطرا للقول بنسبية القيم الخلقية نسبية تجردها من عمق الاحترام الواجب لكي تلعب الأخلاق دورا في ضبط السلوك.

والفكر الوضعي يعرف أهمية القانون لتنظيم وحماية المجتمعات ولكنه مضطر للتسليم بقانون مجرد من الجذور الروحية ومن الأعماق الخلقية محصور فيما ينظم حقوق الأفراد المادية والمسائل الأمنية وعلاقات الحكم، أنه مضطر لذلك لأنه لا يستطيع التعامل مع القيم الروحية والخلقية مع اعترافه بأهميتها. إنه مضطر لذلك لأن تجربة ارتباط القانون بالدين في تاريخ أوروبا كانت تجربة مريرة ومليئة بالتعصب والعنف.

إذن فالفكر الوضعي غير الديني يعاني من :

- الاعتراف بأهمية الاعتقاد للإنسان ولكنه لا يستطيع الالتزام بعقيدة بعينها.
- الاعتراف بأهمية الأخلاق للإنسان ولكنه لا يستطيع التزام قيم خلقية بعينها.
- الاعتراف بأهمية القيم الروحية والخلقية في دعم القانون وتعميق فاعليته ولكنه مضطر إلى تجريد القانون من تلك القيم حماية للحرية الدينية.

حل تلك المشاكل في الإسلام:

١. الإسلام لا يسمح بوجود توتر بين الوحي ووسائل المعرفة الإنسانية الأخرى لأن الوحي الإسلامي نفسه يقر وجود تلك الوسائل ويحث الإنسان على استخدامها ففي أكثر من خمسين موضعا في القرآن يحث الذكر الحكيم الناس أن

يستخدموا عقولهم بحثا ومقارنة واستنتاجا :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] ويحث الذكر الحكيم على استقراء التجربة وسيلة للمعرفة:﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [2] وقوله :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [3].

٢. إن للإسلام عقائد غيبية محددة ومطلقة والإسلام يقر للحياة الدنيا والمجتمع الإنساني فيها بأهمية كبيرة. والإسلام يوفق ما بين ثبات في عقائده الغيبية وحركة في تعاليمه الاجتماعية. إن المبدأ الاجتماعي الأساسي في الإسلام هو العدل والحركة الاجتماعية في الإسلام تقوم على عطاء إنساني معترف به:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [4]. ولا تعارض في الإسلام بين عقيدة أن الله هو العلي القدير وبين حمل الإنسان أمانة التكليف وقيامه بدور إيجابي في تطور الحياة: سئل رسول الله ﷺ: أأعقل ناقتي يا رسول الله أم أتوكل على الله ؟ فرد: أعقلها وتوكل.

٣. والإسلام يقر للإنسان كإنسان بتكريم: « ولقد كرمنا بني آدم[5]. » ويعترف بالأديان الكتابية الأخرى اعترافا شرعيا. ويوفق بين إيمانه بصحة الرسالة المحمدية واعترافه بكرامة الإنسان لإنسانيته واعترافه بحقوق الأديان الكتابية الأخرى. وهذا يعني أن الإسلام يوفر حقوق الإنسان وحرية العقيدة من داخل رسالته. هذا بينما الأديان الأخرى لا تستطيع قبول حرية الأديان وحقوق الإنسان إلا بإفراغ نفسها من عقيدتها الدينية.

(1) سورة الروم الآية ٢٤- وسورة الرعد الآية ٤- وسورة النحل الآية ١٢.
(2) سورة الذاريات الآيتين ٢٠ و٢١.
(3) سورة العنكبوت الآية ٢٠.
(4) الرعد الآية ١١.
(5) الإسراء الآية ٧٠.

٤. ويحل الإسلام المشكلات التي ذكرنا أن الفكر الوضعي غير الديني يعانيها في موضوع القيم الروحية والخلقية والقانون بأسلوب فريد. فنصوص الشريعة الإسلامية تنقسم إلى قسمين: قسم أول غايته المحافظة على مصالح إنسانية عامة مثل حفظ النفس والمال ويلتزم هذا القسم بتحقيق العدل لكل الناس والقسم الثاني لا ينطبق إلا على المسلمين لأن الواجبات والمحرمات فيه ذات طابع ديني مثل تحريم الخمر ولحم الخنزير..الخ. فالجناية في هذا القسم واردة من المسلم وغير واردة من غير المسلم.

٥. هذا التقسيم يمكن للشريعة الإسلامية أن تحافظ على الربط بين الدين والأخلاق والقانون وتوفر في نفس الوقت حرية الاعتقاد. ولا يشك أحد أن ارتباط القانون بالقيم الخلقية والروحية يجعله أكثر فاعلية وأكثر احتراما.

إن الفكر المسيحي الكنسي التزم بمفاهيم (مقولات) غيبية لا مكان فيها لدور الإنسان ووسائل معرفته الإنسانية (العقل والتجربة) ولا لحركته الاجتماعية. وأقام الفكر المسيحي الكنسي سلطة دينية هي الكنيسة وأوجب طاعتها إيجابا مقدسا بقدسية الدين. وصارت هذه السلطة الدينية تقطع بالرأي في المعارف والأوضاع الاجتماعية مطالبة باعتبار ما تدلي به جزءا من مقدسات الدين.

وإذا تأملنا ما أدلت به من آراء ومفاهيم لرأينا كيف أثار معارضة شديدة وكيف نشأ الفكر الوضعي الحديث من تلك المعارضة خذ هذه الأمثال:

- الإنسان ساقط بالخطيئة الأولى، ولا قيمة له أصلا إلا بإيمانه وتمسكه بفداء السيد المسيح.
- لا قيمة تذكر لمعارف العقل والتجربة، بل المعرفة كلها غيبية.
- المادة وهمومها باطلة لا يليق بالإنسان الاهتمام بها.

- الجنس من مخلفات الخطيئة الأولى، وحري بالإنسان أن يلغيه، فإن مارسه فللضرورة التناسلية وحدها.

هذه المقولات نشأ منها بردة الفعل مقولات الفكر الوضعي الآتي بيانها على التوالي:-

- مقولة الناسوتية (أو النزعة الإنسانية Humanism) التي بالغت في تقدير الإنسان حتى جعلته محور كونه بلا شريك.
- مقولة العلمانية التي بالغت في إنكار الغيب إنكارا مطلقا، وحصرت القيمة كلها في هذا العالم المشاهد في الزمان والمكان.
- مقولة المادية الجدلية التي بالغت في أهمية المادة بحيث جعلت دوافع الإنسان، وحركة المجتمع، وحركة التاريخ، أصداء لمعطيات مادية.
- مقولة فرويد في علم النفس التي بالغت في قيمة الدافع الجنسي وجعلته الدافع الأساسي في تكوين الإنسان وجعلت كل ما سواه ظلا له.

علينا أن ندرك تاريخ هذا الصراع الفكري لكيلا نقع في واحد من الأخطاء الثلاثة الآتي بيانها التي يقع فيها كثير من الناس:

الخطأ الأول: خطأ الذين يتمسكون بهذه النظريات الوضعية ويعتبرونها ملمة بالحقيقة الكاملة، مفسرة للكون ولحياة الإنسان. هذه ا لنظريات قائمة على حقائق جزئية وتطرفت فوسعتها وبالغت فيها بموجب ردة الفعل لذلك لا يمكن أن تفسر الحقائق كلها ولا أن تكون فلسفة كاملة للكون وحياة الإنسان فيه.

الخطأ الثاني: هو خطأ الذين يسقطون تلك النظريات الوضعية كأنها مؤامرات شريرين قذفوا بها لتضليل البشرية- إنها في الحقيقة نظريات قائمة على حقائق جزئية

وسعتها ردة الفعل فادعت أكثر مما هو لها وتطرفت في الاتجاه المضاد لاتجاه ومقولات منكريها.

الخطأ الثالث: القول بأن تلك النظريات الوضعية صارعت الدين في التاريخ الأوروبي وصرعته. وأن هذا الصراع يمثل تطور البشرية الحتمي من الدين إلى ما بعده. وأن ما حدث للمسيحية الكنسية سيحدث لكل دين آخر بما في ذلك الإسلام.

ولكن مقولات المسيحية الكنسية، التي خلقت ردة الفعل المذكورة غير واردة في الإسلام-كما رأينا- فلا يجوز أن نعتبر ما حدث في التاريخ الفكري الأوروبي مقياسا لما ينبغي أن يحدث للإسلام. صحيح أن بعض المسلمين وبعض المجتمعات الإسلامية التزموا مقولات مشابهة لبعض مقولات الفكر المسيحي الكنسي ولكن مهما ادعوا فقد ظل الإسلام أوسع من مقولاتهم، ومهما ادعوا فإن الإسلام لا يأذن لهم ولا لغيرهم بإقامة سلطة دينية يقدسون بموجبها مقولاتهم.

إذا أمعنا النظر في الإسلام لوجدنا أنه ينطوي على هداية موزونة وتوفيق لطيف بين الأضداد مما لا يسمح بالفعل وردة الفعل المتطرفة التي أحدثها الفكر الإنساني الوضعي في أوروبا وأمريكا.

ليس هذا فحسب بل إذا نحن تمعنا موقف الإسلام لوجدنا له سبقا على الفكر الوضعي. وسأضرب لذلك السبق أمثالا من ميدان القانون المرتبط بموضوع هذا الكتاب.

١. هنالك أمور حرمتها الشريعة وتشددت في تحريمها وتساءل كثيرون عن الحكمة في هذا التشدد، جاءت التجربة البشرية نفسها بما يكشف عن تلك الحكمة البالغة.

أ- حرمت الشريعة الخمر تحريما مغلظا، وتكتشف الإنسانية يوما بعد يوم أضرارا جديدة للخمر. أضرارا لا تقف عند حد الأذى العضوي وما تسبب من إنهاك للكبد بل- أضرارا نفسية. فالإنسان في حياته معرض لمشاكل نفسية حتمية: يأمل فيخيب أمله، ويحزن فيسود أفقه، ويكره فتضيق دنياه، ويحب فيهيم هياما، ويفرح فيطيش صوابه، ويسبح في الخيال فينسى واقعه، ويخلد لواقعه فيقتله الملل. وهذه الحالات يمكن علاجها إذا وجد الأنس بالإيمان والاطمئنان به: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]. ولكن في غيبة الإيمان كما هو الحال في كثير من المجتمعات الحديثة يلجأ الناس للخمر فتداوي الخمر مللهم وتقلباتهم بتهدئة مؤقتة. ثم يعتادون هذا الدواء فيعتمدون على الخمر في مواجهة الحياة. وفي أوروبا وأمريكا نجد الكثيرين الآن إذا سمعوا نبأ حزينا أو نكبوا أو مروا بتجربة مرة امتدت أيديهم فورا إلى زجاجة الخمر. صارت الخمر جزءا من توازنهم النفسي. ولكنه توازن واهم: التهدئة مؤقتة، ثم يفيق فإذا أسباب الهم والغم تواجهه بقوة مضاعفة تذهب بآثار الهدوء المؤقت الذي أحدثه الشراب. ويصبح معتاد الخمر مع كل مرة يشرب أكثر اعتمادا على الخمر، وأضعف نفسيا باعتماده المتزايد عليها، وأضعف عضويا بإرهاقه الكبد بمادة كيماوية (الكحول) عسير هضمها.. سبحان الله ما أدق ما وصفها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[2].

والإحصاء يوضح أن أكثر الوفيات في البلاد الأوروبية الصناعية وأمريكا هي من حوادث الطرق والسيارات. ويوضح أن أكبر أسباب تلك الحوادث هي الخمر.

(1) سورة الحديد الآية ٢٣.

(2) سورة البقرة الآية ٢١٩.

وأكثر أسر المرضى في المستشفيات في أوروبا وأمريكا اليوم يرقد فيها مرضى بأمراض نفسية، أو الأمراض النفسية الحسية مثل أمراض القلب والدورة الدموية. وهذه الأمراض (النفسية) تدخل الخمر فيها عنصرا فعالا تدخل دواءا ثم تصبح داءا.

قد استشفيت من داء بداء وأقتل ما أعلك ما شفاكا

والفكر الحديث الجاد لم يعد ينكر أضرار الخمر، ولا ينكر صعوبة الاقتصاد في تعاطيها لأنها مقرونة بالأفراح والأحزان وهذه بحار لا ساحل لها. ولأنها ليست شيئا يصدم منه الشبع: لأن في الخمر معنى ليس في العنب.

والمشكلة التي تؤرق الباحثين الحادبين هي مشكلة عملية: كيف يمكن منع الخمر أو الحد من تعاطيها ؟.

ب- وحرمت الشريعة الزنا تحريما مغلظا، واقترن تحريم الزنا في كثير من آيات الذكر الحكيم بتحريم قتل النفس- مثلا- قوله تعالى :﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[1].

لقد ظهر في دراسات دقيقة لتاريخ حضارات الإنسان أن هناك علاقة وثيقة بين قوة الضوابط الجنسية في الحضارات وبين مستوى الصرح الحضاري الذي يقيمونه. لقد أثبت العالم أونوين في كتابه «الضوابط الجنسية والسلوك الثقافي»[2] أن تلك الضوابط مهمة في المجتمعات لصناعة الحضارة. لأن طاقة الحرمان المخزونة تفرج عن نفسها في تعبير آخر ينتج الحضارة. وهو ما يسمى بالتسامي. وأن الحضارات

(1) سورة الفرقان الآية ٦٨.

(2) Unwin, J.D. Sexual Regulations and Cultural Behavior. London: Oxford University Press, 1935

الراقية عموما كانت نتاج مجتمعات فيها نوع من الضبط في العلاقات الجنسية بين أفرادها. وأن تفسخ وانهيار الحضارات كان دائما ملازما لإشاعة الإباحية بين أفراد مجتمعاتها.

لقد درس الكاتب عددا كبيرا من الحضارات المتدرجة، من حضارات بسيطة وأخرى متوسطة وثالثة متقدمة. ودرس الضوابط الجنسية التي عرفتها تلك الحضارات. وحلل دراساته واستنتج أن الحضارات الأكثر تقدما هي الأكثر تشددا في ضوابط السلوك الجنسي. وأن الحضارات الأكثر بساطة هي الأكثر تراخيا في ضوابط السلوك الجنسي. هذا معناه أن الناس يحققون لأنفسهم إحياء معنويا بالانضباط الجنسي. وأنهم يقتلون أنفسهم معنويا بالإباحية الجنسية.

كما لفت المؤرخ البريطاني توينبي النظر إلى أن سيطرة الجنس يمكن أن تؤدي إلى تدهور الحضارات[1].

كذلك لا شك أن الإباحية الجنسية تفشي الأمراض السرية. وهذه الأمراض تنتشر بعناد شديد في المجتمع الإباحي مهما كانت الاحتياطات قوية ومهما كان الطب متقدما. وفي بعض المجتمعات الأوروبية والأمريكية التي تمارس « حرية » جنسية ظهرت فيروسات تسبب أمراضا قاتلة لا سبيل لعلاجها أو الوقاية منها لأنها اكتسبت مناعة. لقد كان من عواقب الثورة الجنسية والممارسات الإباحية التي سادت الغرب في ستينيات القرن المنصرم، انتشار أمراض أشهرها المرض السري «الهربز» ومرض نقص المناعة المكتسب AIDS. هذ، المرض الأخير ووجه بعدة وسائل وقائية قللت من خطر انتشاره بصورة وبائية في الغرب، ولكنه يهدد العديد من المجتمعات الإفريقية اليوم، خاصة تلك التي تشيع فيها التعددية الإباحية بين

(1) A Study of History Toynbee .

الرجال والنساء.

والانضباط الجنسي ضروري لبقاء الشهوة الجنسية نفسها قوية في نفس الإنسان. فالإباحية الجنسية تؤدى مع الزمن لإضعاف الشهوة الجنسية. والشهوة الجنسية القوية شرط للتناسل وحفظ النوع الإنساني.. لقد عملت دراسات في نوادي العراة في الغرب - وهي نوادي يتجول فيها أفرادها وهم عراة تماما من الملابس- فوجد أن الإثارة تبرد مع مرور الوقت، بل أن معظم مرتادي تلك النوادي يقولون أنهم يقصدونها لنزع الغرائز الجنسية منهم! ولذا فالضوابط في الزي وتنظيم العلاقات الجنسية تؤدي للمجتمعات الإنسانية وظيفة بيولوجية.

هذه الحقائق معناها أن ثمة علاقة وثيقة بين الانضباط الجنسي والمحافظة على الحياة.

والفكر الوضعي الجاد يلمس أضرار الإباحية الجنسية على الإنسان وعلى مستقبل الحضارة ويتأمل السبل لتنظيم السلوك الجنسي وضبطه بفاعلية.

٢. لقد أتت الشريعة الإسلامية بمفاهيم وأحكام منذ خمسة عشر قرنا كانت من الروعة والرحمة بحيث لم يهتد الفكر القانوني الوضعي لمثلها إلا في القرنين الماضيين من الزمان. كان القانون الوضعي لا يضع قيدا على الحاكم. وكان لا يعرف سيادة القانون. وكان لا يعتبر المسئولية الجنائية شخصية فيسأل مع الجاني أهله وأصدقاءه وكان يعاقب الطفل غير المدرك، والمكره، والمعتوه، وكان لا يعرف حقوق الإنسان.

هذه العيوب تخلص منها الفكر القانوني الوضعي منذ زمان قريب.

أما الشريعة الإسلامية فمنذ بدايتها منذ خمسة عشر قرنا قيدت سلطة الحاكم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». والشريعة فوق الناس كلهم: قال رسول الله ﷺ في مرضه الأخير: «أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه.

ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه. ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منى حقا إن كان له. أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس.»[1] والمسئولية الجنائية في الشريعة منذ بدايتها شخصية ومتعلقة بالعاقل البالغ المختار. قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

وقال ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ»[3].

وقال ﷺ: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

ومنذ بداية الشريعة الإسلامية نص كتاب الله وسنة رسوله على حقوق الإنسان في الكرامة، والعدالة، والحرية، والشورى، والحريات الشخصية، والتكافل، والرعاية طفلا ومريضا وشيخا، والاحترام لجسده حتى القبر ميتا. حقوق أرادها الشارع تكريما للإنسان وتفضيلا له ولا يجوز مصادرتها أو الاعتداء عليها.

٣. وفي مجال الأحكام الجنائية فإن الشريعة الإسلامية لم تقف في محاربة الجريمة عند العقوبة وحدها بل حاصرت الجريمة كما سنرى بجبهة عريضة وظفت فيها كل العوامل النفسية والروحية والاجتماعية الفاعلة في حياة الإنسان بحيث كانت العقوبة عاملا من ستة عوامل وظفتها الشريعة لإبادة الجريمة. هي: الإيمان، العبادات، الأخلاق، الرعاية الاجتماعية، الرأي العام، ثم أخيرا العقوبة.

ذلك التوازن والتوفيق بين الأضداد الذي أشرنا إليه أعلاه، وهذا التفرد والسبق

(1) تاريخ ابن الأثير ج١ ص ١٥٤ - والحديث رواه الطبراني.

(2) سورة الأنعام الآية ١٦٤ - سورة الإسراء الآية ١٥ - سورة فاطر الآية ١٨ - وسورة الزمر الآية ٧.

(3) موسوعة الحديث الشريف رواه عن علي (رض) أبو داؤد ، وأحمد والترمذي والنسائي والدارمي وابن ماجة.

الذي دللنا عليه، آيات بينات لروعة الشريعة الإسلامية، روعة ليس من المعقول أن تكون من تأليف بشر عاش في الحجاز قبل خمسة عشر قرنا من الزمان. وعاش ما عاش فلم يعهد فيه مثل هذا العطاء ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [1] حتى بلغ من العمر أربعين سنة فكان الوحي وكانت الفطرة.. هذه حجة دامغة احتج بها كتاب الله نفسه إذ قال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [2].

وهي حجة يحني لها رأسه كل من سمعها حتى إن لم يكن من المسلمين، لذلك قال الأستاذ منتجمري واط في كتابه عن محمد: « إن افتراض أن محمدا كاذبٌ في دعواه يخلق مسائل لا جواب لها[3] ».

(1) سورة يوسف الآية ٣.

(2) سورة يونس الآية ١٦.

(3) W. Montgomery Watt, Mohammad at Mecca, Oxford 1953, p.52

openkan.com